في كلمتين — تحية لـ«سبأ»

من «سبأ» يأتينا النبأ اليقين.. فالخدمة الإخبارية التي تقدمها الوكالة اليمنية للأنباء- سبأ تشهد تطوراً وجديداً هو نتاج للسياسة التي تتبناها الوكالة في تحسين وتجويد منتجها الإعلامي سواءً من خلال الاهتمام بالعنصر البشري تدريباً وتأهيلاً أو تكنولوجيات الإنتاج والنشر والاتصال في مجال الأخبار والمواد الإعلامية المتعلقة بالأخبار..

لم تغب عن الإعلامي هذه التطورات الملموسة.. ففي الخدمة الإخبارية تتجلى مهارات محرري الوكالة حيث برزت القيم الإخبارية في صياغة الأنباء بصورة مهنية.. واتسعت تغطية مجالات هذه الخدمة، فضلاً عن الخدمات الصحفية الأخرى من تحقيقات وحوارات وتحليلات.. الخ، وفي جانب المعلومات والتوثيق والنشر أيضاً تتبدى نجاحات الوكالة..

حسب الوكالة «سبأ» أنها وفريقها تعمل بهدوء ودون ضجيج.. وليست بحاجة لأن نعلن عن إنجازاتها.. ولكن هنا نحيي الوكالة وجميع منتسبيها لما يحققوه من خدمة إعلامية متطورة.. وهي محل تقدير وثناء الإعلاميين.

عندما نلتقي

وتنطفئ قناديل الإبـــداع!!

عبدالعزيز شايف

■ إنه لشيء محزن أن تنطفئ تلك القناديل، وبشكل مفاجئ قبل أوانها، رغم إيماننا «بقضاء الله وقدره» في أنه «لا يدعو إلى داره إلاّ مَن استصلح من ذي العباد».

نقول إن أفول تلك القناديل قبل أوانها يُفجر في أعماقنا سيولاً من الحزن، وفي قلوبنا ركاماً من الآلام، لا لشيء إلاّ لأن رسالة أولئك الذين أفلت نجومهم، لما تكتمل بعد وأن تلك الطموحات المشرقة لم تبث كل اشراقها مكتملاً وأن تلك اللمسات المعبرة مازالت قيد الفيض من العطاءات.

لقد غاب عنا «فريد الظاهري» المخرج الفنان، والمبدع المتجدد، وهو يواصل شحذ موهبته ويصقل «سيف عطائه» بهدف تقديم هدية لا لمواطني محافظة إب الجميلة فقط، ولكن لكل ابناء اليمن، يمن المحبة والخير يمن الوحدة والديمقراطية يمن الفن والابداع.

هذه التناولة للفنان المتواضع والمتجدد والنشط الظاهري ليست تعزية عادية كغيرها من كتابات العزاء وتعبيرات الأحزان.. ولكنها دفق مشوب بالخوف والقلق والاضطراب وعلى من؟ على الابداع ذاته، والذي نحن في أمسّ الحاجة إليه، وكذا على المبدعين وهم محدودون، من أن يتساقطوا واحداً بعد الآخر، رغم إيماننا كما قلنا سابقاً: بما تُقرره الأقدار، وبما يحدده قضاء الله وقدره.

خوفنا يكمن في أن المبدعين ليسوا من الكثرة بحيث ان هذا يعوض ذاك..

وليست مدارسنا ومعاهدنا من النشاط والجدية بحيث انها تكتشف لنا المزيد من المواهب في سن مبكر بحيث انها تكون رافداً للمستقبل، وأملاً في التكاثر والانتشار، فإذا ما حان القضاء القدري، فإن في الاحتياط الابداعي ما يكفي لتخفيف الفراغات المحزنة، وفيها ما يفي بالعطاءات المتواصلة التي تثري الساحة دون ظهور أية بوادر للجدب الابداعي أو الجفاف الفني الذي لا يريده الجميع.

نقول هذا وأملنا أن تزداد الجهات ذات الاختصاص اظهاراً للمزيد من البذل والاهتمام بالعناصر الابداعية في مختلف اصناف العطاءات وفي سائر مظاهر الفنون.

إذ كم تكون المأساة مضاعفة ومؤثرة عندما نسمع أخباراً عن هذا المبدع أو ذاك.. نسمعها بعد أن يكون قد ودع الحياة، وهي تحكي لنا عن حالته المتعبة؟ وعن عمليات الاحباط التي كان يُقابل بها؟ وكيف أنه كان يقضي معظم أوقاته وهو يبحث عن بيت إيجار آخر، لأنه قد تم طرده من قبل المؤجر لعدم قدرته على دفع الزيادة المضافة عليه، والتي لا يتحملها مرتبه الهزيل.

ثم كم تتجسم تلك المشاعر بالأسى والحزن عندما نسمع أن هذا المبدع مهدد بالاحالة فيما بعد الى الهيئة العامة للتامينات آي «التقاعد» فيظل هذا الأمر يلاحقه ويتملك عليه مشاعره ويحد من طاقاته وعطاءاته.. وما أصعب الحياة على المبدعين الذي يمتلكون مشاعر وأحاسيس أكثر شفافية من تلك التي يمتلكها الآخرون من البشر «الآخرون العاديون» نقول: ما أصعب تلك الحياة، بعد أن تتحول الى ركام من الاوهام ورزم من المخاوف لتقف حائلة دون عطاءاتهم الرائعة تلك التي ينتظرها المحبون والعاشقون للفن والابداع والنجاح المتميز.

فهل يحظى من تبقى من المبدعين بالرعاية اللازمة قبل أن تنطفئ بقايا تلك القناديل؟

أم سنظل نكيل لهم التعازي والأحزان بعد أن يكون الأوان قد فات؟

عـــالم يصنعـه الإعـلام..

إغـــراق في المعلومات.. ومعـرفة مهددة

□ نجيب شجاع الدين

■ نحن نعيش عصر الصورة.. أهم مايميز عالمنا المعاصر انه اختصر المسافات الزمانية والمكانية.. فأصبح بمثابة قرية كونية صغيرة.. بل أصبح بحجم شاشة التلفاز تتصفاح أعين ساكنيه صباحاً مساءً.

الحادثة تقع في أدنى الأرض فيراها ويسمعها الجميع في نفس اللحظة بكل تفاصيلها.. بفضل ما آلت إليه تقنية الاتصالات الهائلة من تقدم مذهل خلال السنوات الأخيرة مكّنت وسائل الاتصال من تبوؤ مكانة عظيمة لم تشهدها من قبل..

هي اليوم.. سلطان العصر المتحكم على أرضه وفضائه وصاحب القوة الجذابة والتأثير الطاغي على عين وعقل الإنسان.. هذا التطور السريع الذي شهده ميدان الإعلام.. غمر العالم بآلاف الرسائل والصور..

يتزاحم في الفضاء العربي والأوروبي الآن أكثر من ٤٠ قمراً اصطناعياً تعمل في إطار شركات غربية لتغطية المنطقة العربية وأوروبا.. ومع التطور المتسارع لتكنولوجيا الاتصال عبر الأقمار بثاً واستقبالاً اخذت تكلفة الاستقبال التلفزيوني تنخفض لتصبح أجهزة الاستقبال في متناول معظم الأسر..

التطورات الجارية تمضي باتجاه تصغير الهوائي المستخدم للاستقبال بحيث يكون مشابهاً للهوائي الخاص باستقبال البث التلفزيوني الأرضي، وكذلك تصغير حجم مغذي الموجات وجعله أكثر حساسية للموجات عالية التردد جداً لوضعه على هوائيات صغيرة الحجم.. وقد تمكنت تكنولوجيا الأقمار الصناعية في مجال الاتصال والإعلام ان تطور من إمكاناتها.. فقد أتاح النظام الرقمي ان يضاعف من عدد قنوات الاتصال الفضائية على القمر الواحد دون زيادة في التكلفة لتصل إلى ثمانية أضعاف الإمكانات القائمة في النظام التناظري.

الصراع على أشده

● وكنتيجة طبيعية للتطور الحاصل الذي أصبح فيه المشاهد يمتلك الأثير.. تشهد الفضائيات سباقاً محموماً مستخدمة كافة الوسائل الممكنة لإبقاء عيون المشاهدين متسمرة أمام برامجها..

فجهاز التلفزيون رغم انه ذو شاشة صغيرة إلاّ أن أثره جوهري وضخم كونه بعد دخوله إلى كل بيت يدخل في جميع مجالات الحياة تقريباً وذلك بفضل هذا الانفجار الإعلامي الهائل والمتواصل الذي يتخذ من الفضائيات وسيلة للوصول إلى المتلقي في بيته والتواصل معه وتقديم وجبات الصور التي يحتاجها بحرية تامة..وفي الغالب تحاول مضمون الفضائيات الأجنبية ترسيخ الأفكار والثقافات والعادات المختلفة السائدة في المجتمع من خلال اغراءات هذه البرامج التي تحقق الغايات أيا كان نوعها وهكذا أصبح الصراع في الساحة الإعلامية على أشده.

وحسب دراسات منظمة اليونسكو فإن الاتصال سيظل يتسم بأهمية أساسية قد ينتج عنها بعض احتمالات عصر يمكن ان يتولد عنه الخير كله أو الشر كله.

فيما تذكر الدراسات العربية ان العلاقة بين الإنسان العربي والتلفزيون أصبحت تأخذ شكل المرض النفسي كالإدمان تحكمه القواعد نفسها وتنطبق عليه القوانين نفسها ويمكن القول إن الإعلام أصبح عند البعض ديناً يُعبد ومنهجية توجه متلقيها أينما أتجه..ولعل هذا الواقع في التأثير على عقل الإنسان من مفرزات العولمة وتياراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي فرضت نفسها على الإعلام بهذا الشكل العالمي الشامل.

مهددون بالغرق

● وفي ظل تعدد بدائل الاختيار والتنقل بمجرد لمسة زر أصبح الإنسان في شوارع القرية الصغيرة يهتم بأخبار الكوارث الطبيعية والحروب والاضطرابات والتقلبات والمكتشفات والمهرجانات بقدر اهتمامه بالغذاء والكساء.. وبإمكانه مشاهدة أينما أتجه، الأفلام، الأغاني، المسلسلات.. الخ.. طوال الوقت دون توقف.ومع هذا فإن هناك من يرى بان كثرة القنوات الفضائية أدت إلى تشتت المشاهد.. كما لم تود المنافسة الشديدة بين هذه القنوات الكثيرة إلى الإجادة بعكس ما كان يتصور.

فيما يتفق الكثير من المهتمين بان تعدد قنوات الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة لم يؤدِ إلى زيادة معرفة حقائق الحياة الاجتماعية المعاصرة والاطلاع على مايجري في العالم بدون تمييز أو إقصاء..

لقد كان أبناء المجتمعات المتقدمة يشكون بعد الحرب العالمية الثانية من نقص المعلومات والأخبار لكنهم أصبحوا أليوم مهددين بالغرق في يم الأخبار الجارفة.

يلخص هذه الوضعية أحد المختصين في مجال الاتصال بقوله: «من كثرة معرفتنا بكل شيء أصبحنا لانعرف أي شيء!» فأمام الإيقاع المتسارع لتدفق الأخبار عبر مختلف قنوات التصال أصبح المواطن يرى الحياة عبر وسائل الاتصال كراكب قطار يرى الطبيعة تمر أمامه بسرعة فائقة: «لم ترتفع الكثير من الأصوات في الدول المتقدمة للتحذير من مخاطر وسائل الاتصال الجماهيري على الديمقراطية فقط بل التأكيد على تأثيرها الخطير على الحياة الاجتماعية بصفة عامة.. هذا ما ذكر في عرض الكتاب المعنون «إن وسائل الإعلام تفكر مثلي» الذي صدر في باريس سنة ١٩٩٧م.

إن المواطنين الذين غمرتهم مياه بحر وسائل الإعلام وغرقوا في أعماق الوسائل الإعلامية ذات المضامين الامتثالية والتوفيقية قد أضاعوا كل دليل ومؤشر، فالواقعي اختلط لديهم بالافتراضي والصواب امتزج بالخطأ.. لقد طمست وسائل الاتصال الجماهيري القيم وقدمتها للمواطنين الذين يا للمفارقة يسلمون أنفسهم عن طوعية لعمليات سبر الآراء لتقودهم.

بين أمير الشعراء وحامل الأثقال

بقلم رجاء النقاش

■ بين أبطال الرياضة والشعراء خصومة صامتة، أسبابها غير مفهومة كما يذهب الكاتب والناقد العربي الكبير الأستاذ رجاء النقاش في مقالته بالأهرام (١٨ مارس ٢٠٠٧م) والتي نعيد نشرها هنا حيث يقف على قصيدة لأمير الشعراء هي الوحيدة في شعرنا العربي كتبها شوقي تحية لبطل رياضي..

● حينما نقرأ الديوان الكبير لأمير الشعراء أحمد شوقي وهو ديوان يتجاوز ألف صفحة، يدهشنا أن هذا الشاعر العبقري صاحب الموهبة الفريدة لم يترك شيئاً مما يدور في عصره، صغيراً كان أو كبيراً، إلاّ وكتب عنه، ففي ديوان شوقي، على سبيل المثال، سوف نجد ثلاثاً وسبعين قصيدة في الرثاء، وبعض هذا الرثاء كان لشخصيات عالمية وتاريخية مثل «تولستوي» و«شيكسبير» و«نابليون» و«فيكتور هيجو» ولكن معظم قصائد الرثاء عند شوقي هي لشخصيات مصرية وعربية، وهذا الرقم المرتفع لقصائد الرثاء يعني ان شوقي لم يترك شخصية مهمة رحلت في عصره إلاّ وكتب عنها وحاول ان يرسم لها صورة تحدد ملامحها الأخلاقية وما قامت به من أعمال، ولاشك ان هذه القصائد الكثيرة التي كتبها شوقي في الرثاء يمكن ان تساعد المؤرخين مساعدة كبيرة على فهم عصر شوقي، وهو أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فشوقي في ديوانه يقدم ما يمكن ان نسميه باسم «التاريخ الشعري» لأهم الرجال والأحداث في عصره الذي عاش فيه.

على أن شوقي كانت له بصورة عامة فلسفة أساسية في كتابة قصائده، وهذه الفلسفة تقوم على أن موضوع القصيدة ليس له أهمية، وان الشاعر يستطيع ان يكتب قصائده في أي موضوع قد يبدو للناس انه بسيط وليس فيه من الشعر أو النثر شيء، والمهم عند شوقي ليس موضوع القصيدة ولكن كيف يقوم الشاعر بمعالجة هذا الموضوع، وكيف يستطيع ان يخرج منه بالتعبير عن أفكار ومشاعر لها قيمتها وعمقها رغم بساطة الموضوع الأصلي أو ضعف ما فيه من إيحاءات واغراءات «شعرية»، والشاعر هنا يعتمد في الغالب على ما يسميه علماء النفس باسم «التداعي الحر»، أي انه يستسلم لأفكاره وعواطفه، ويكتب ما تمليه عليه هذه الأفكار والعواطف دون ان يتقيد بشيء آخر، وفي هذه الحالة لايهم الموضوع الذي يكتب فيه الشاعر، فالموضوع هو مجرد مناسبة يعبر فيها الشاعر عما تمتلئ به نفسه من صور ومشاعر، وأظن ان هذا «التداعي الحر» هو ما ينطبق على الشعر العربي القديم كله وليس على شعر شوقي وحده.

نتوقف هنا مع إحدى قصائد شوقي التي يبدو موضوعها بعيداً كل البعد عن الشعر، فقد أراد الشاعر الكبير ان يقدم التحية والتهنئة لبطل رياضي مصري هو «السيد نصير» «١٩٠٥-١٩٧٤م» فكتب شوقي قصيدة هي فيما أعلم القصيدة الوحيدة في شعرنا العربي المعاصر والتي كتبها الشاعر في تحية بطل رياضي، فأبطال الرياضة بينهم وبين الشعراء خصومة صامتة أسبابها غير مفهومة، ولعلي لا أنسى هنا قصيدة عربية بديعة هي «مرثية لاعب سيرك» لشاعرنا الكبير أحمد عبدالمعطي حجازي، ولكن هل يمكن اعتبار لاعب السيرك بين الرياضيين؟ إنه- في أغلب الظن- من قبيلة الفنانين وليس الرياضيين.

قبل ان نتوقف أمام قصيدة شوقي، لنرى كيف استطاع ان يستخرج الشعر من موضوع لاشعر فيه، نشير إلى بعض المعلومات الأساسية عن البطل السيد نصير، وهو أسطورة من أساطير الرياضة المصرية والعالمية في أوائل القرن العشرين، وسوف اعتمد هنا على دراسة قصيرة ممتازة للأستاذ منتصر أبوالحجاج «الأهرام المسائي في ١٨ فبراير ٢٠٠٧م» حيث يقول عن هذا البطل الرياضي المصري:

«إنه أبرز من أنجبت مصر على الصعيد الرياضي، وقد طافت شهرته العالم من أقصاه إلى أقصاه حتى أصبح اسمه أنشودة تتردد على صعيد الرياضة في العالم اجمع، وقد استطاع هذا البطل العالمي المصري ان يحقق لمصر من الانتصارات الرياضية ما لم يحققه بطل رياضي آخر، وقد أحرز السيد نصير بطولة العالم في رفع الأثقال لوزن «خفيف الثقيل» في امستردام بهولندا سنة ١٩٢٨م عندما فوجئ العالم بطريقته الجديدة والتي أصبحت معروفة باسم «طريقة الجمل» تلك الطريقة التي أخذ بها جميع الرياضيين في العالم بعد ذلك، وهي طريقة قريبة إلى عملية الخطف والرفع باليدين حيث يدفع اللاعب قدمه اليمنى إلى الأمام ثم يقفز واقفاً بسرعة على عكس ما كان متبعاً قبل ذلك، حيث كان اللاعب لايحرك قدميه مطلقاً أثناء حمل الأثقال، ولاتزال هذه الطريقة معروفة عالمياً إلى الآن بأنها طريقة «السيد نصير» أو «طريقة الجمل»، وقد كان السيد نصير أول بطل مصري يقف جمهور دورة أولمبية عالمية تحية له ولعلم بلاده وسلامها الوطني في عام ١٩٢٨م، واستطاع السيد نصير إحراز بطولة العالم للمرة الثانية عام ١٩٣٠م في ميونخ، وحقق نفس البطولة العالمية للمرة الثالثة عام ١٩٣١م في لكسمبورج»..

ديوان شوقي تضمن ٧٢ قصيدة رثاء لشخصيات عالمية وتاريخية مثل شكسبير وتولستوي ونابليون

تلك هي صورة عامة للبطل المصري السيد نصير كما يرسمها لنا الأستاذ منتصر أبو الحجاج، وهي صورة رائعة ومشرفة، ومع ذلك فقد يرى البعض أن حياة هذا البطل الرياضي المتفوق في «حمل الأثقال» بعيدة كل البعد عن أن تكون وحياً للشعراء أو مصدراً للشعر، ورياضة حمل الأثقال عموماً توحي بالعنف، وربما توحي بالقسوة أيضاً، فما الذي يمكن للشاعر أن يجده في هذه الرياضة مما يوحي إليه بالعواطف والصور والأفكار الشعرية؟ هذا سؤال لم يتوقف أمامه أحمد شوقي، لأنه كما سبقت الإشارة لايعتبر الموضوع أكثر من وسيلة أو مناسبة لإطلاق خواطره ومشاعره في حرية ودون أي قيود.. عندما فاز البطل المصري السيد نصير ببطولة العالم للمرة الثانية في حمل الأثقال سنة ١٩٣٠ اهتزت مصر كلها طرباً وفرحاً بهذا البطل الذي رفع اسمها في الدنيا كلها إلى أعلى الدرجات، وهنا تحركت عبقرية شوقي فكتب قصيدة عن السيد نصير، وقد ألقيت هذه القصيدة في حفل تكريم أقيم للبطل المصري في ديسمبر سنة ١٩٣٠م، فماذا يمكن ان يقول شوقي في البطل حامل الأثقال الذي لفت أنظار العالم وجعل اسم مصر على كل لسان؟

يبدأ شوقي بداية تقليدية فيهنئ البطل بانتصاره ويقول:

شرفاً نصير، ارفع جبينك عالياً
وتلقّ من أوطانك الإكليلا

-ثم يقول:

اليوم يوم السابقين فكن فتى
لم ينبع من قصب الرهان بديلا

وفي البيتين السابقين نجد كلمة «الإكليل» ومعناها طاقة من الورد على شكل تاج يكلل الرأس، أما «قصب الرهان» فمعناها كما يقول الدكتور علي عبدالمنعم عبدالحميد في شرحه لديوان شوقي: «إن قصب الرهان تعني الأول في السباق وذلك ان العرب كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة، فمن استطاع ان يسبق قام بأقتلاع هذه القصبة كبرهان على أنه هو الأول الذي فاز على غيره في هذه السباق».. يتوقف شوقي بعد هذه البداية التقليدية ليلقي ببعض حكمته التي كانت لاتقوته في أية قصيدة وهو الذي له تعريف للشعر يقول فيه: «إن الشعر لايخرج عن كونه أخباراً وحكمة» «الشوقيات- الطبعة التي أشرف عليها الدكتور علي عبدالمنعم عبدالحميد صفحة ٩٣».

- يقول الشاعر الحكيم شوقي:

هذا زمان لاتوسط عنده
يبغي المغامر عالياً وجليلا
كن سابقاً فيه أو ابقَ بمعزل
ليس التوسط للنبوغ سبيلا

فلا مكان في صراع الحياة للمتوسطين بل للسابقين المتميزين على غيرهم، أما المتوسطون فسوف يضيعون في الزحام.. هكذا كان شوقي ينظر إلى الأمور.

يقفز شوقي بعد ذلك قفزة رائعة في آخر هذه القصيدة، وهذه القفزة هي «الشعر الصافي» في أجمل صورة له، ففي الأبيات السبعة الأخيرة من القصيدة يتأمل شوقي أحوال الناس والحياة ويخاطب البطل «السيد نصير» حامل الأثقال قائلاً:

قل لي نصير، وأنت بر صادق
أحملت إنساناً عليك ثقيلا؟
أحملت ديناً في حياتك مرة؟
أحملت يوماً في الضلوع غليلا؟
أحملت ظلماً من قريب غادر
أو كاشح بالأمس كان خليلا؟
أحملت منّا بالنهار مكرراً
والليل، من مسدٍ إليك جميلا؟
أحملت طغيان اللئيم إذا اغتنى
أو نال من جاه الأمور قليلا؟
أحملت في النادي الغبي إذا التقى
من سامعيه الحمد والتبجيلا؟

- ثم يلقي شوقي بقمة معزوفته في البيت الأخير من القصيدة فيقول:

تلك الحياة، وهذه أثقالها
وُزِنَ الحديد بها فعاد ضئيلا

بعض الكلمات في هذه الأبيات الإنسانية البديعة قد يحتاج إلى شيء من التوضيح، فكلمة «الغليل» هي من «الغل» وتعني الكراهية والحقد، وكلمة «الكاشح» تعني العدو الذي تمتلئ نفسه بالبغضاء، وكلمة «النادي» تعني الجماعة التي تلتقي مع بعضها البعض..أرأيت إلى هذه الأبيات السبعة العذبة الأخيرة في قصيدة شوقي عن البطل السيد نصير؟ إن شوقي يعزف هنا عزفاً جميلاً مؤثراً على أحزان الإنسان في هذه الدنيا، وهذا العزف بعذوبته وصدقه هو هدف أساسي من أجله كتب شوقي هذه القصيدة التي كان موضوعها لايوحي بأي شعر، وإذا كان البطل المصري قد استطاع ان يهزم أثقال الحديد فمن يستطيع ان يهزم الهموم والأثقال المعنوية التي يتعرض لها الناس فتملأ حياتهم في بعض الأحيان بالدموع والأحزان؟!

■ قرأت لك ■

قصة مخترع المطبعة..

مات جوتنبرج فقيراً معدماً ولم يعرف أبداً أية خدمة كبرى قدمها للبشرية باختراعه العظيم

■ استغرق الأمر ملايين السنين حتى يتوصل الجنس البشري الى القدرة على استخدام اللغة.. واستغرق الأمر عدة قرون حتى تصبح الكتابة إحدى حقائق الحياة الانسانية.

إن قصة الكتابة هي قصة الانتقال من الكتابة التصويرية الى نظم علم الصوتيات ومن التعبير عن الأفكار المعقدة بالصور أو الرسومات المعبرة الى استخدام الحروف البسيطة للتعبير عن أصوات محددة.

وفي حوالي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد بدأت تظهر النقوش التي يبدو أنها كانت مرتبطة بالمعاني.. ثم كانت الكتابة على أساس النطق.. وكانت المشكلة الكبرى بالنسبة للكتابة هي حمل الرسالة المكتوبة قبل اكتشاف صناعة الورق.

وقد كان ورق البردي الذي اكتشفه قدماء المصريين «٢٥٠٠ق.م» بالمقارنة مع الحجر خفيفاً للغاية.. ثم كان الورق الذي اخترعه الصينيون.. وظلت المخطوطات ونسخها رمحاً من الزمن وسيلة لنقل المعرفة وتداولها حتى كان عصر الطباعة الذي كان لمخترع المطبعة جوتنبرج دور غير به وجه الحياة البشرية.. ولذلك قصة جديرة بأن نقف عليها..

عصر الطباعة

والى جانب الكتابة، كانت الطباعة أحد أعظم منجزات الجنس البشري في كل العصور.. وقد كان الناس، قبل القرن الخامس عشر، ينسخون الكتب في أوروبا عن طريق عمل مخطوطات أو نسخ من هذه الكتب تتم كتابتها يدوياً.. ومع أن العديد من هذه الكتب يمثل تحفاً فنية رائعة، إلاّ أن عملية النسخ اليدوي غالباً ما كانت عرضة لحدوث أخطاء.. والأهم من ذلك أن عدد الكتب المتاحة كان محدوداً للغاية ولم يكن شراؤها بوسع أحد سوى دائرة ضيقة من الأشخاص القادرين.. ولقد أحدثت الطباعة تغييراً مذهلاً، حيث أصبح من الممكن نسخ المئات وربما آلاف النسخ من كتاب معين بقدر كبير من الدقة.. وكانت الطباعة -بحق- اختراعاً لا يصدقه عقل، له وقع الصاعقة في أوساط المتعلمين في ذلك الحين.

وقد جاءت أخطر المراحل التي أسفرت في النهاية عن ظهور الطباعة في العالم الغربي عندما بدأت الورقة تحل محل المخطوطة الرقية «المصنوعة من الرق» في العالم الإسلامي خلال القرن الثامن الميلادي «ظهر الورق قبل ذلك بكثير في الصين».. ومن العالم الإسلامي، انتشر الورق بشكل تدريجي الى أوروبا المسيحية خاصة بعد فتح الأندلس «أسبانيا».. ورغم ذلك، فإن رجال الدين والقادة السياسيين والعلماء وكتبة المخطوطات لم يفقدوا احتكارهم للقراءة والكتابة إلاّ بعد اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر.. ومع انتشار معرفة القراءة والكتابة، كان عدد قليل من الناس فقط بوسعهم التنبؤ بمدى التأثير العميق الذي ستحدثه الطباعة في تاريخ الانسانية.

الطباعة بجمع الحروف

إن فكرة استخدام الختم لترك أثر على سطح ما أو طبع صورة على الطمى الطري باستخدام اسطوانة خشبية تدور وقد حفرت عليها بعض الرموز، تعد فكرة قديمة.. وحتى عملية طبع صفحة كاملة من الحروف.. عن طريق الضغط عليها بقوة فوق سطح من الخشب الأملس لتترك صورة معكوسة يتم تحبيرها وطبعها بطريقة الختم على ورقة أو أي سطح آخر، كانت معروفة أيضاً منذ وقت طويل.. فقد استخدم الصينيون هذه الطريقة وطبعوا بها كتاب المأساة سوترا أو محاورات بوذا وهو أول كتاب في العالم حوالي سنة ٨٠٠ بعد الميلاد.. وكان ذلك قبل ظهور الطباعة في المجتمع الغربي بمئات السنين.. وكانت هذه الطريقة أبعد ما تكون عن نظام الطباعة الخاص باستخدام حروف فردية مصفوفة من المعدن.

والطباعة كما نعرفها الآن لم تكن ممكنة حتى توصل صائغ مغمور في مدينة «مينز» بألمانيا يدعى جوهان جوتنبرج الى طريقة فريدة للطبع.. فبعد تجارب عدة، طور جوتنبرج فكرة عمل ختم من الصلب لكل حرف بحيث يكون الحرف محفوراً بدقة وبطريقة معينة، وبعد ذلك قام بطبع صورة هذا الحرف عن طريق الضغط على مربع من معدن أكثر ليونة مثل النحاس الأصفر.. وكان يقوم بوضع قالب من الصلصال حول الأثر الذي تركه الحرف المصنوع من الصلب على النحاس حتى يقوم بعد ذلك بصب الرصاص المنصهر فيه لعمل قالب مصبوب من الحرف.. وهذا القالب يمكن استخدامه أكثر من مرة لصب أي عدد من الحروف يحتاجها عامل الطباعة.. وبعد ذلك يمكن رص الحروف وجمعها فوق لوحة لتشكيل كلمات وجمل.. ويتم تضبيط هذه الحروف بإحكام حتى لا تتحرك ثم تحبيرها وتضغط عليها قطعة من الرق أو الورق فتنتج صورة واضحة تماماً.. وقد اتضح أن معدن الرصاص لين أو طري أكثر من اللازم.. ولكن جوتنبرج اكتشف، في النهاية، طريقة لخلط الرصاص بمعادن أخرى لعمل نوع من السبيكة التي حققت نتائج ممتازة.

وكانت المشكلة الوحيدة المتبقية هي المطبعة، فقد كان نموذج المطبعة اليدوية التي تعمل بالضغط اللولبي قديماً.. وكان استخدام هذا النموذج كآلة للضغط شائعاً لعدة قرون في مجال عصر الزيتون لاستخراج الزيوت وعصر العنب للحصول على النبيذ.. وقد حصل جوتنبرج على آلة ضخمة لعصر النبيذ وأدخل عليها تعديلات كثيرة مثل توفير سطح توضع عليه لوحة الحروف وسطح أملس للضغط على الورقة التي ستتم الطباعة عليها.. ولأن كل شيء كان يجب صفه وترتيبه بدقة تصل الى جزء من البوصة، فقد كان من الضروري عمل تجارب عدة.. وفي النهاية، قام جوتنبرج بتشغيل هذه المطبعة بنجاح بعد أن وضع الحبر على الحروف واستخدم الحواجز الملائمة لضمان ثبات لوحة الحروف وعدم تحرك صفوف الحروف بداخلها.. وكانت النتيجة رائعة حيث ظهرت الحروف واضحة ونظيفة، ولم تكن هناك أخطاء كتلك التي كانت شائعة أثناء استخدام طريقة النسخ اليدوي.

ورغم ذلك، كان جوتنبرج يشعر بالقلق لأنه لم يكن واثقاً من أن اختراعه الذي استغرق منه ٢٠ عاماً لإكماله سوف يحظى بالانتشار على نطاق واسع.. كذلك، كان جوتنبرج قلقاً من أن يفضل القادرون على شراء الكتب النماذج المنسوخة يدوياً وأن ينظروا الى اختراعه على أنه نوع من التقليد الرخيص.. وقد كان ذلك أحد الأسباب التي دفعته الى أن يكون مشروعه الأول هو طبع إنجيل مزين بأشكال جميلة.. فقد شعر أنه سيكون قادراً على بيعه للأغنياء.. وأثبتت الأيام أن تجربة جوتنبرج كانت ناجحة بشكل مذهل.. وكان الإنجيل الذي طبعه جوتنبرج هو أروع أمثلة فن الطباعة التي تم إنجازها على الاطلاق.

ومن المحزن أن جوتنبرج لم تتح له الفرصة للاستمتاع بثمار عبقريته وقدرته على التخيل.. فقد اقترض أموالاً كثيرة من محاميه في أثناء تطويره لاختراعه.. وبينما كان في المرحلة الأخيرة من مشروعه الأول -طباعة الإنجيل الشهير- طلب منه محاميه سداد ديونه ورفع ضده دعوى في المحكمة وانتزع من ملكية الورشة والمطبعة وكل ما يتعلق باختراعه الجديد بما في ذلك ٢٠٠ نسخة مطبوعة من الإنجيل الى جانب ممتلكاته بالكامل.. وبعد سنوات مات جوتنبرج فقيراً معدماً، ولم يعرف أبداً أي خدمة كبرى قدمها للبشرية باختراعه العظيم.

* من كتاب«نظريات وسائل الاعلام» تأليف ملفين ل.ديفلير وآخرون – ترجمة كمال عبدالرؤوف.